أما كلمة « يتفكرون » فهى أمّ كل تلك المعانى ؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين ، أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

وهذا يعنى ألاَّ تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أنْ تنظرَ إلى المعطيات الخلفية كى تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفتَ ، فالمهمة مُكوَّنة من أربع مراحل ؛ تفكُّر ، فتدبُّر ؛ فتفقُّه ؛ فمعرفة وعلْم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ(١) لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ؛ والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم نسَق واحد ، والتسخير يعنى قَهْر مخلوق لمخلوق ؛ ليُؤدِّى كُلٌّ مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر ؛ كُلٌّ له مهمة ، فالليل مُهمته الراحة .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . وقوله (مُسخَّرات) أى : مُسيَّرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

قال الحق سبحانه :

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص]

والنهار له مهمة أنْ تكدحَ فى الأرض لتبتغى رِزْقاً من الله وفَضْلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدِّفْء ، وهى تعطيك دون أنْ تسألَ ، ولا تستطيع هى أيضاً أن تمتنعَ عن عطاء قَدَّره الله .

وهى ليست ملْكاً لأحد غير الله ؛ بل هى من نظام الكون الذى لم يجعل الحق سبحانه لأحد قدرةً عليه ، حتى لا يتحكّم أحدٌ فى أحدٍ ، وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وإياك أنْ تتوهّم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هى مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ[1] (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)﴾ [الليل]

أى : أن الليل والنهار وإنْ تقابلا فليسا متعارضين ؛ كما أن الذكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمة كل منهما بل لتتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل ليُوضّح لنا هذا التكامل فيقول :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

---

(١) الغشاء : الغطاء . غشّيت الشىء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] . فالليل يغشى الناس بظلمته ويغطى على ضوء النهار .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

وأىُّ إنسان إنْ سهر يومين متتابعين لا يستطيع أنْ يقاومَ النوم ؛ وإن أدَّى مهمة فى هذين اليومين ؛ فقد يحتاج لراحة من بعد ذلك تمتدُّ أسبوعاً ؛ ولذلك قال الله :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً[1] (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) ﴾ [النبأ]

والإنسان إذا ما صلَّى العشاء وذهب إلى فراشه سيستيقظ حتْماً من قبل الفجر وهو فى قِمّة النشاط ؛ بعد أنْ قضى ليلاً مريحاً فى سُبَاتٍ عميق ؛ لا قلقَ فيه .

ولكن الإنسان فى بلادنا استورد من الغرب حثالة الحضارة من أجهزة تجعله يقضى الليل ساهراً ، ليتابع التليفزيون أو أفلام الفيديو أو القنوات الفضائية ، فيقوم فى الصباح مُنْهكاً ، رغم أن أهل تلك البلاد التى قدَّمتْ تلك المخترعات ؛ نجدهم وهم يستخدمون تلك المخترعات يضعونها فى موضعها الصحيح ، وفى وقتها المناسب ؛ لذلك نجدهم ينامون مُبكّرين ، ليستيقظوا فى الفجر بهمّة ونشاط .

ويبدأ الحق سبحانه جملة جديدة تقول :

﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. (١٢) ﴾ [النحل]

نلحظ أنه لم يَأتِ بالنجوم معطوفةً على ما قبلها ، بل خَصَّها الحق سبحانه بجملة جديدة على الرغم من أنها أقلُّ الأجرام ، وقد لا نتبيَّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها ولكنّا نجد الحق يُقسِم بها فهو القائل :

---

(١) يُشبّه الليل باللباس لأنه ساتر . [القاموس القويم ٢/١٨٨] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٦٢) : « أى يغشى الناس ظلامه وسواده . وقال قتادة : (لباساً) أى : سكناً . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) ﴾ [النبأ] أى : جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات » .

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾

[الواقعة]

فكلُّ نجم من تلك النجـوم البعيـدة له مُهـمة ، وإذا كنتَ أنت فى حـياتك اليـومـيـة حين ينطفـىء النور تذهب لتـرى : ماذا حـدث فى صندوق الأكـبـاس الـذى فى منزلك ؛ ولكنك لا تعـرف كـيف تأتيك الكهـرباء إلـى منزلك ، وكـيف تقـدَّم الـعلم ليـصنعَ لك الـمـصـبـاح الكهربائى . وكيف مدَّتْ الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك .

وإذا كنتَ تجـهل مـا خَلْف الأثر الواحد الـذى يصلك فى منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)﴾ [الواقعة]

وهو القائل :

﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

وقد خصَّـها الحق سبحـانه هنا بجملة جديدة مـستقلة أعاد فـيها خبـر التـسخـير ، ذلك أن لكلٍّ منهـا منازلَ ، وهى كثـيرة على الـعَدِّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوؤه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصَّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبينَ أن لله سراً فى كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفتَ إلى أن تركـيبات الأشياء التى تنفعنا مـواجهةً وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيِّل الآية الكريمة بقوله :

﴿ إنَّ فِى ذَ'لِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾ [النحل]

ونعلم أن الآياتِ هى الأمورُ العجيبة التى يجب ألاَّ يمرَّ عليها الإنسان مراً مُعرضاً ؛ بل عليه أنْ يتأملَها ، ففى هذا التأمل فائدة له ؛ ويمكنه أنْ يستنبطَ منها المجاهيل التى تُنعِّم البشر وتُسعدهم .

وكلمة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تعنى إعمالَ العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبةً خاصة ؛ وهو يستنبط من المُحسَّات الأمورَ المعنوية ، وبهذا يأخذ من المعلوم نتيجةً كانت مجهولةً بالنسبة له ؛ فيَسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمةً يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أنْ يستنبطَ ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾ (١)

وكلمة ﴿ ذَرَأَ ﴾ تعنى أنه خلق خَلْقاً يتكاثر بذاته ؛ إما بالحَمْل للأنثى من الذَّكَر ؛ فى الإنسان أو الحيوان والنبات ؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما فى الطيور .

وهكذا نفهم الذَّرْءَ بمعنى أنه ليس مطلقَ خَلْق ؛ بل خلق بذاته فى

---

(١) ذرأ الله الخلق يذرؤهم : خلقهم وبثَّهم وكثَّرهم . [القاموس القويم ١/ ٢٤٢] .

التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسلُ بذاته حين يجتمع زوجان وننتجا مثيلاً لهما ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿فَتَبَارَكَ[1] اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭﴾ [المؤمنون]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يُعطيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخَلْقه ؛ فهو قد خلَق آدم ثم أوجدهم من نسله . والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخَلْق الله ؛ فهم لا يخلقون من معدوم ؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم مَنْ لا وجودَ له ؛ وهو بذلك أحسنُ الخالقين .

والمَثل الذى أضربه دائماً هو الحبة التى تُنبت سبْعَ سنابل وفى كل سُنْبلة مائة حَبّة ؛ وقد أوردها الحق سبحانه ليشوِّق للإنسان عملية الإنفاق فى سبيل الله[2] ، وهذا هو الخَلْق الماديّ الملموس ؛ فمن حَبَّة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ .. ⑬﴾ [النحل]

أى : ما خلق لنا من خَلْق متكاثر بذاته تختلف ألوانه . واختلاف الألوان وتعدُّدها دليل على طلاقة قدرة الله فى أن الكائنات لا تخلق على نَمَط واحد .

---

(١) تبارك الله : تقدّس وتنزّه عن كل نقص ، أو كَثُر خيره على عباده . [القاموس القويم ١/٦٥] .

(٢) قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ⑳⑥①﴾ [البقرة] .

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر]

وأنت تمشى بين الجبال ؛ فتجدها من ألوان مختلفة ؛ وعلى الجبل الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقات مُتعدّدة ، وهكذا تختلف الألوان بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فلَنا أن نعرفَ أن العلماء هنا مقصودٌ بهم كُلّ عالم يقف على قضية كونية مَرْكوزة فى الكون أو نزلتْ من المُكوِّن مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلّى أسرار الله فى خلقه . وقد أراد ﷺ أن يفرق فَرْقاً واضحاً فى هذا الأمر ، كى لا يتدخَّل علماء الدين فى البحث العلمىّ التجريبىّ الذى

---

(١) الجدد : الطرائق تكون فى الجبال جمع جدة . وهى الطريقة فى السماء والجبل . وقوله عز وجل : ﴿ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ... (٢٧) ﴾ [فاطر] أى طرائق تخالف لون الجبل . [لسان العرب - مادة : جدد] .

(٢) غربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/ ٥٠] .

يُفيد الناس ، ووجد ﷺ الناس تُؤبّر[1] النخيل ؛ بمعنى أنهم يأتون بطَلْع الذُّكورة ؛ ويُلقِّحون النخيل التى تتصف بالأنوثة ، وقال : لو لم تفعلوا لأثمرتْ . ولما لم تثمر النخيل ، قَبل رسول الله ﷺ الأمر ؛ وأمر بإصلاحه وقال القولة الفصل « أنتم أعلَمُ بشئون دنياكم »[2] .

أى : أنتم أعلم بالأمور التجريبية المعملية ، ونلحظ أن الذى حجز الحضارة والتطوُّر عن أوربا لقرون طويلة ؛ هو محاولة رجال الدين أنْ يحجُروا على البحث العلمى ؛ ويتهموا كُلّ عالم تجريبىّ بالكفر .

ويتميز الإسلام بأنه الدين الذى لم يَحُلْ دون بَحْث أى آية من آيات الله فى الكون ، ومن حنان الله أنْ يُوضّح لخَلْقه أهمية البحث فى أسرار الكون ، فهو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

أى : عليك أيُّها المؤمن ألاَّ تُعرض عن أىِّ آية من آيات الله التى فى الكون ؛ بل على المؤمن أنْ يُعملَ عقله وفكْره بالتأمُّل ليستفيد منها فى اعتقاده وحياته . يقول الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

(١) أبر النخل والزرع يأبره : أصلحه . وتأبير النخل : تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك ، أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الردىء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

أما الأمور التى يتعلَّق بها حساب الآخرة ؛ فهى من اختصاص العلماء الفقهاء .

ويذيل الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾ [النحل]

أى : يتذكَّرون شيئاً مجهولاً بشىء معلوم .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى التسخير ، فيقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً[1] تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ[2] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾

والتسخير كما علمنا من قَبْل هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع الكائن أنْ يتخلَّف عنها ، ولا اختيارَ له فى أنْ يؤدِّيها أو لا يُؤدِّيها . ونعلم أن الكون كله مُسخَّر للإنسان قبل أنْ يُوجدَ ؛ ثم خلق الله الإنسان مُخْتاراً .

وقد يظن البعض أن الكائنات المُسخَّرة ليس لها اختيار ، وهذا خطأ ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْه فى بداية وجودها ، ولنقرأْ قوله الحق :

---

(١) الحلية : يعنى بها اللؤلؤ والمرجان . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨١١) .

(٢) مخرت السفينة : شقَّت الماء بصدرها وسُمع لها صوت . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خيَّر خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التي هي ما دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرَّة واحدة ؛ لذلك لا يجب أنْ يُقال : إن الحق سبحانه هو الذي قهرها ، بل هي التي اختارتْ من أول الأمر ؛ لأنها قدرتْ وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكأنها قالت لنفسها : فلأخرج من باب الجَمال ؛ قبل أن ينفتحَ أمامي باب ظلم النفس .

ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان :

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فقد ظلم الإنسانُ نفسَه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة ؛ لأنه قدر وقت التحمُّل ولم يقدر وقت الأداء ، وهو جَهُول لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .

وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أنْ يتخلَّف عنها ؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لمُهمة له أنْ يُؤدِّيها أو يتخلَّف عنها .

وأوضحنا أن المُسخَّرات كان لها أنْ تختارَ من البداية ، فاختارتْ أن تُسخَّر وألاَّ تتحملَ الأمانة ، بينما أخذ الإنسانُ المهمةَ ، واعتمد على عقله وفكْره ، وقَبِل أن يُرتِّب أمور حياته على ضوء ذلك .

---

(١) الشَّفق : الخوف . والشفقة : رقة من نصح أو حب يؤدي إلى خوف . [لسان العرب ـ مادة : شفق] .

ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كى يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار ؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجرى على الإنسان ولا اختيارَ له فيها ؛ كأن يمرضَ أو تقع له حادثة أو يُفلس .

ولذلك أقول : إن الكافر مُغفَّل لاختياره ؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرَّد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفى الآية التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل]

فهذا يعنى أنه هو الذى خلق البحر ، لأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض ؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

اى : أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضاً من الطعام فيقول :

﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾

[النحل]

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتى المدُّ أحياناً ثم يَعْقبه الجَزْر ؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطىء ، أو قد تحمل موجة عفيَّة بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطىء .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجودَ بعض من الأسماك على الشاطىء هو الذى نبَّه الإنسان إلى أهمية أنْ يحتالَ

ويصنع السِّنارة ؛ ويغزل الشبكة ؛ ثم ينتقل من تلك الوسائل البدائية إلى التقنيّات الحديثة في صيد الأسماك .

لكن الحلية التي يتم استخراجها من البحر فهي اللؤلؤ ، وهي تقتضي أن يغوصَ الإنسان في القاع ليلتقطها . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أسرار كنوزه فيقول :

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ[1] (٦)﴾ [طه]

وكل كنوز الأمم توجد تحت الثَّرى . ونحن إنْ قسمنا الكرة الأرضية كما نقسم البطيخة إلى قطَع كالتي نُسمِّيها « شقة البطيخ » سنجد أن كنوز كل قطعة تتساوى مع كنوز القطعة الأخرى في القيمة النفعية ؛ ولكن كُلّ عطاء يوجد بجزء من الأرض له ميعاد ميلاد يحدده الحق سبحانه .

فهناك مكان في الأرض جعل الله العطاء فيه من الزراعة ؛ وهناك مكان آخر صحراوي يخاله الناس بلا أيّ نفع ؛ ثم تتفجَّر فيه آبار البترول ، وهكذا .

وتسخير الحق سبحانه للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة التي هو عليها ؛ بل قد تجد له أشياء ومهام أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى عليه السلام ؛ وصار كل فِرْق كالطَّوْد[2] العظيم.

---

(١) الثرى : التراب الندى أو التراب مطلقاً . قال تعالى : ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦)﴾ [طه] . أى : ما تحت جميع طبقات الأرض . [القاموس القويم ١/١٠٧] .

(٢) يقول تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] . والطود العظيم : الجبل الكبير . قال عطاء الخراساني : هو الفج بين الجبلين . [تفسير ابن كثير ٣/٣٣٦] .

ومن قبل ذلك حين حمل اليمّ[1] موسى عليه السلام بعد أن ألقتْه امه فيه بإلهام من الله :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحملَ موسى إلى الشاطىء فَوْر أنْ تُلقيَه امه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر فى مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحُلِيّ . ونعلم أن ماءَ البحر مالح ؛ عكس ماء النهر وماء المطر ؛ فالمائيّة تنقسم إلى قِسْمين ؛ مائية عَذْبة ، ومائية مِلْحية .

وقوله الحق عن ذلك :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[2] سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[3] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢) ﴾

[فاطر]

ويسمُّونهم الاثنين على التغليب فى قوله الحق :

﴿ مَرَجَ[4] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن]

والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح ، وكيف يختلطان ، ولكن

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] وهو خليج السويس وماؤه ملح وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم ٢/ ٣٧٢] .

(٢) الفرات : أشد الماء عذوبة . وقد فَرُتَ الماء : عَذُب . [لسان العرب - مادة : فرت] . وشراب سائغ : عَذْب يسهل مدخله فى الحلق . [لسان العرب - مادة : سوغ] .

(٣) الملح الأجاج : الشديد الملوحة والمرارة . [لسان العرب - مادة : أجج] .

(٤) مرج الشىء : خلطه . أى خلطهما حالة كونهما يلتقيان . [القاموس القويم ٢/ ٢٢١] .

الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض ، وأنت لو حفرتَ فى قاع البحر لوجدتَ ماء عَذْباً ، فالحق سبحانه هو الذى شاء ذلك وبيَّنه فى قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤) ﴾ [النحل]

واللحم إذا أُطلق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام ، أما إذا قُيِّد بـ « لحم طرى » فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآنى ؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طَرِيّاً دائماً .

ونجد مَنْ يشترى السمك وهو يَثْنى السمكة ، فإنْ كانت طريّة فتلك علامةٌ على أنها صالحةٌ للأكل ، وإنْ كانت لا تنثنى فهذا يعنى أنها فاسدة ، وأنت إنْ أخرجتَ سمكة من البحر تجد لحمها طَرِيّاً ؛ فإنْ ألقيتَها فى الماء فهى تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء ؛ أما إنْ كانت ميتة فهى تنتفخ وتطفو .

لذلك نهى النبى ﷺ عن أكْل السمك الطَّافى لأنه المَيْتة ، وتقييد اللحم هنا بأنه طرىّ كى يخرجَ عن اللحم العادى وهو لَحْم الأنعام ؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلفَ ألاّ يأكل لَحْماً ؛ ثم أكل سمكاً فهو لا يحنث ؛ لأن العُرْف جرى على أن اللحم هو لَحْم الأنعام .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية عن تسخير البحر :

﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً ؛ لأنها رفاهية ؛ أما السمك فقال عنه مباشرة :

﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. ﴿١٤﴾﴾ [النحل]

والأكْل أمر ضروري لذلك تكفَّله الله وأعطى التسهيلات في صَيْده ، أما الزينة فلكَ أنْ تتعبَ لتستخرجه ، فهو تَرَفٌ . وضروريات الحياة مَجْزولة ؛ أما تَرَف الحياة فيقتضي منك أنْ تغطسَ في الماء وتتعبَ من أجله .

وفي هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أنْ يرتقيَ في معيشته ؛ فَلْيُكثِر من دخله ببذل عرقه ؛ لا أنْ يُترِف معيشته من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

﴿تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾﴾ [النحل]

والحِلْية كما نعلم تلبسها المرأة . والملْحظ الأدنى هنا أن زينةَ المرأة هي من أجْل الرجل ؛ فكأن الرجلَ هو الذي يستمتع بتلك الزينة ، وكأنه هو الذي يتزيَّن . أو : أن هذه المُسْتخرجات من البحر ليست مُحرَّمة على الرجال مِثْل الذهب والحرير ؛ فالذهب والحرير نَقْد ؛ أما اللؤلؤ فليس نَقْداً .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصحّ أنْ تُصنعَ من تلك الحلية عَصاً أو أي شيء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه في نفس الآية :

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. ﴿١٤﴾﴾ [النحل]

ولم تكُن هناك بواخر كبيرة كالتى فى عصرنا هذا بل فُلْك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول مَنْ صنع الفُلْك ، وسَخِر منه قومه ؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لَمَا سَخِروا منه .

وبطبيعة الحال لم يكُنْ هناك مسامير لذلك ربطها بالحبال ؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[1] (١٣) ﴾ [القمر]

وكان جَرْى مركب نوح بإرادة الله ، ولم يكُنْ العلْم قد تقدَّم ليصنع البشر المراكب الضخمة التى تنبّأ بها القرآن فى قوله الحق :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ[1] (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ونحن حين نقرؤها الآن نتعجَّب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر ؛ فالقرآن عالم بما يَجِدّ ؛ لا بقهريات الاقتدار فقط ؛ بل باختيارات البشر أيضاً .

وقوله الحق :

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

والمَاخِر هو الذى يشق حلزومه الماء ، والحُلْزوم هو الصدر . ونجد مَنْ يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادةً لتكون رأس الحربة التى تشق المياه بخرير .

---

(١) الدسار : المسمار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة ، وجمعه دسر . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

(٢) الأعلام جمع علم وهو الجبل . فهو يصف السفن بالجبال فى كبرها . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٢) : « أى : كالجبال فى كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع » .

وفى هذه الآية امتنَّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُلىّ ، وسَيْر الفلْك فى البحر ؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ ؛ فيقول :

﴿ ولِتبْتغُوا من فَضْله .. (١٤) ﴾ [النحل]

وكان البواخر وهى تشقّ الماء ويرى الإنسان الماءَ اللين ، وهو يحمل الجسم الصُّلْب للباخرة فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسانَ من مكان إلى مكان .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ ولعلّكُمْ تشْكُرُونَ (١٤) ﴾ [النحل]

ولا يُقال ذلك إلا فى سَرْد نعمة آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشكر من العقل العادى والفطرة العادية ، وشاء سبحانه أنْ يتركَ الشُّكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) ﴾

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلِقت على مراحل ، ويشرح ذلك قوله سبحانه :

(١) ماد يميد : تحرك واهتز . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وألْقىٰ فى الأرْض روَاسى أن تَميدَ بكُمْ ..(١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[١] ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[٢] فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

وهكذا علمنا أن جِرْم الأرض العام قد خُلق أولاً ؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة ؛ ولأن الحركة هي التي تأتي بالمَيدان - التأرجُح يميناً وشمالاً - وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق في الأرض الرواسي لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة ، والرَّاسي هو الذي يَثبت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال ، ولكنه خلقَ الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض .

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾ [النمل]

وكلمة ﴿ أَلْقَى ﴾ تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وُضِع ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً .. (١٥) ﴾ [النحل]

(١) الأنداد : جمع ندّ . وهو الضد والشبيه . ويريد بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله . [لسان العرب - مادة : ندد] .

(٢) الأقوات جمع قوت ، وهو الرزق . قال ابن كثير في تفسيره (٩٣/٤) : « هو ما يحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس » .